

بين الأدب والتاريخ

الرحلات العربية

كيف بدأت ومتى دونت ؟

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

—

الرحلة هي للنقلة من مكان إلى آخر . وقد تكون فردية لا يحتاج الإنسان فيها إلا إلى راحته وهامة نفسه ومشدود رحله . وقد تكون جماعية يخرج فيها الجمل للفقر من الناس لغرض من الأغراض أو باعث من البواعث

وأكثر الرحلات يأتي طوع الإرادة ووليد المشيئة من غير اضطرار ولا قسر . وبمضها يكون وليد ظروف طارئة أو مناسبات فاهرة ، تخرج الرء أو الجماعة عن الوطن الأول ، أو ترى به بعيداً عن مصانع صباه وملاعب شبابه ، إلى وادٍ سعيد ، أو مطرح بعيد ...

ومن الرحلات ما يغير أوضاع التاريخ ويفرض على العالم نظاماً جديداً ، فيقرب بعيداً ، أو يبعد قريباً ، أو يصل بين شعب وشعب ، أو يربط بين جنس وجنس ، فتظهر لغات جديدة ، وثقافات جديدة . ومن هذا النوع رحلة القحطانيين من الجنوب إلى الشمال ؛ أو إذا شئت للتدقيق من اليمن إلى الحجاز . وهي رحلة جماعية كبيرة ، وسمتها إذا شئت هجرة ، وسمتها إذا أردت انتقالاً . ولكنها على كل حال أخرجت للقحطانيين من ديارهم ونشرتهم في أنحاء الجزيرة العربية وأخرجت منهم بطوناً كثيرة وقبائل كثيرة يعرفها كل من قرأ تاريخ الأدب

ولقد كانت هذه الرحلة بنت للقمح ووليدة الاضطراب ، وسببها أن سيل العرم قاض وبلغ الزبي فاكتمح السدود ، ورمى بالحواجز ، وغمر الأرض ، وُبدل السبثيون حالاً بحال ، فارتحلوا إلى الشمال . ولولا هذه الرحلة الجامعة ما قام للناذرة على حدود القرس ، ولا استقام ملك للفسانيين على حدود بلاد الروم

ومن سوء حظ للتاريخ والأدب أنه لم يهتم بهذه الرحلة واحد من المهاجرين المشتركين فيها ولم يدون أبنائها ولم يسف مشاهداتها

وكل ما وصل إلينا منها أنباء قليلة بعضها من مصادر دينية ، وبعضها يعتمد على الرواية والأخبار . ولو اهتم بها أحد من حثوا مظاياها أو شدوا رحالها لخرج لنا سفر عظيم من أسفار الرحلات الخالدة .

وبعض الرحلات أو الهجرات يكون ضرورياً لإكمال دعوة في أرض بعيدة غريبة ، واجتباب أذى في دار قريبة حبيبة ، ومن ذلك هجرة النبي محمد عليه السلام إلى المدينة بعد ما أوفى في مكة بين أهله وعشيرته مما هو مدون بالتفصيل في كتب السيرة الزكية ولقد هاجر بعض المسلمين الأولين إلى الحبشة فراراً من الأذى ، واستجابة لدعوة الجهاد — والحبشة بلاد كانت معروفة عند العرب وكان الاتصال بينها وبين الجزيرة قاعاً إلا أن الإسلام زاده ووسمه . وكان في استطاعة بعض الرحالين إليها من المسلمين أن يدونوا رحلتهم ومشاهداتها ، إلا أنهم لم يفعلوا . ولعل مشاغل الجهاد ومتاعب الكفاح صرفتهم

والرحلة الذكي للفظن يستفيد دائماً من رحلته علماً وتجربة ، ويكتسب منها فوائد ، ويفتح عينيه دائماً على ما أمامه من مشاهد وما يلاقيه من معالم . فلا يدع شيئاً يمر من غير أن يقف على حقيقته ، أو يكشف عن ماهيته ، كما صنع بعض الرحالين من العرب الذين سنشير إليهم فيما بعد

وتزداد الرحلات بالطبع تباعاً لسهولة الاتصال بين المكان والمكان ؛ فإن الاتصال هو الأداة الوحيدة لاستكمال الرحلة ونجاحها . ومن هذا نفهم قلة الرحلات وندورها في الزمن القديم وقد كان لقريش قبل الإسلام رحلتان عظيمتان : إحداهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام . أشار إليهما القرآن الكريم في سورة خاصة من القصص . وكانتا تتماوران في كل عام . وكان فيهما بالطبع ما في كل رحلة من قوة ومثمة واستبجاء وطرائف ومشاهد ... إلا أن ذلك كله لم يدون لكان للعرب من الأمية ومنزلتهم من الهداوة ... واكتفى أعضاء هذه الرحلات — وسنسميهم رحالين تجاوزاً — بقص القصص وسرد الحديث وإطالة الأسماء كلما حطوا الرحال إلى مكان ، أو استقروا بهم النوى في أي مستقر

ومن حكايا العرب وشمرائهم من جاب البلاد ، وطاف كل

ولقد ساهم للشمراء في نوع جديد من الرحلات يلتهمون به المال ويطلبون للمطاء من ممدوح يقصدونه ، أو عظيم يندبونه ؛ فيكون ذلك الاتصال سبباً في بروز للشمراء وتألق نجمهم . يخرج الواحد منهم من رمال للبادية إلى مقام الحضر ، أو يخرج من مدينة إلى مدينة ، أو يرحل من قطر إلى قطر طلباً للجاه والشهرة ؛ ولكن واحداً منهم لم يفكر في تدوين رحلة أو تسجيل مشاهدة ، لأنه مشغول عن ذلك كله بالحاجة التي قام إليها وركب الأسفار من أجلها ...

ولقد خرج (جبر) من بادية الجيمة إلى عاصمة الخلافة الأموية يقصد عبد الملك بن مروان ويقول لامرأته : سأمتاح البحور فنجيبني أذاة اللوم وانتظري امتياحي وخرج أبو نواس إلى مصر (راحلاً) بمدح الخصب ويقول : ذريني أكثر حاسديك رحلة إلى بلد فيه الخصب أمير وابن هاني الأندلسي يخرج من الأندلس إلى شمال أفريقيا فيمدح الخليفة المزمع ويرحل معه إلى مصر ويصف هذه الرحلة في بعض شعره

وإذا كانت هذه الرحلات الفردية وكثير غيرها قد أضافت بعض الثروة إلى الأدب إلا أنها لم تكن منتجة بالنسبة للرحلات والأسفار . فعلى عقيم كل المقام من هذه الناحية

ولم يبتدىء الاهتمام بالرحلات لقائماً وتدوينها في أسفار خاصة ، وتقييد كل ملاحظات الرحالة عليها إلا في القرن الرابع الهجري - المقابل للماشر الميلادي -

ومن القدمين في هذا الباب المسمودى صاحب (مروج الذهب) وقد أولع بالأسفار وهو صغير ، وخرج للصباحة ولم يسلخ العشرين من عمره . ويمتاز ببعض الدقة العلمية ، وعدم التصديق لكل خرافة تذاق أو ذاتمة تشيع . وعبارته في الكتابة قوية لا تميل إلى ضعف ولا تبحر إلى ركاكة

أما الليروني - وكان من رحالي القرن الرابع أيضاً - فقد ترك لنا كتابيه « الآثار الباقية من القرون الخالية » و « تاريخ الهند » . ويعد كتابه الثاني أوفى مرجع عن بلاد الهند وأملأ كتب الأسفار تعريفاً بها

ولقد ظهر في هذا القرن أيضاً رحلة عظيم اختصه الأستاذ

مطاف ، وأنهم وأنجد ، وشرق وغرب ؛ إلا أنه لم يسجل لرحلته تاريخاً ولم يضع لها نبتاً ، ولكنه مضى على السفر إلى غير غاية ... اللهم إلا اللذات ورياضة النفس واستجماع الخاطر . وتليل منهم من سافر لحكمة يصطادها أو معرفة يقتصها

ولقد طوف امرؤ القيس في الجزيرة فخرج من بني أسد ، وصار على السموأل بن عادي في حصنه ، وذهب إلى اليمن ؛ وشاهد الموج يصطخب في البحر ويمتالي لجة فوق لجة فشبه به الليل في قوله :

وليل كوج البحر أرخى سدوله على بأنواع المموم لينتلي وأبعد في الرحلات والأسفار حتى وصل إلى بلاد الروم ، ودخل أنقرة . ويقال إنه لقي قيصر وأتيح له من أسباب الرحلة ما لم يتح لغيره لفناه وشرفه ومكانه من السيادة في قومه ، إلا أنه لم يدون هذه الرحلة في شعر طويل أو في ترعرير ، ولكنه أشار إليها في بعض قصائده

ولقد طاف أبو بصير الأعشى كذلك وأكثر من الرحلة ، وظهر لذلك بعض الأثر في شعره ، فقال :

قد جبت ما بين بائقيا إلى عدن

وظال في المعجم تردادي ونسياري وأدخل بعض ألفاظ أجمية في شعره نظراً أو تمالكا كقوله :

وشاهدنا الجبل والياشمين والسمات بأقصاها

إلا أنه لم يصنع أكثر مما صنع امرؤ القيس

وجاء الإسلام وفتح المسلمون بلاداً جديدة ، ودخلوا أرضاً كثيرة لم يدخلوها ، وصار إليهم ملك واسع يحتاج إلى مهر كثير لحفظه ، ويحتاج إلى تعب كثير لضبطه . فعرفوا الكثير من البلاد المفتوحة ودروبها وجوادها وحياتها وأهوارها وغلة أرضها ومتنوع ثمارها ليجمعوا الخراج على قدر ذلك وليفرضوا الأموال على نسبتة . ولم تكن هذه المعرفة مبنية على علم دقيق أو بحث متين ولكنها كانت تميل إلى التقريب أكثر منها إلى التحديد

ثم كثرت الرحلات التجارية بين أجزاء المملكة الإسلامية - وهي تذكرنا برحلتى قرش في الشتاء والصيف - إلا أن هذه كانت بين أقطار بعيدة وكانت تحمل من عروض التجارة ألواناً عديدة

ولقد سكنت ربح الرحلات حيناً في عصور الاستبداد المظلمة
لقلة الأمن وصعوبة الرحلة . ويظهر أن ساسلة الرحلات العربية
كانت باعناً لرحلات للتفريين التي تمتعت عن كشف أستراليا
وجزرها . وكشف للعالم الجديد الذي يبلغ عمره الآن أربعة
قرون ونصف قرن

وفي مفتتح القرن التاسع عشر عاد للعرب إلى نشاطهم
في الرحلات . وكان حظ مصر في هذا المضمار عظيماً ؛ فظهر
جماعة من الرحالين الذين أنتجوا كتباً قيمة في أدب الأسفار .
منهم : رقاعة بك للطهطاوي ، وعلى باشا مبارك ، وأمين باشا
فكري ، والشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب كتاب (الواسطة
في أخبار مالطة) وهو ممنوع لقيده . ومحمد ليبب البتانون بك
صاحب (الرحلة الحجازية) و (رحلة الأندلس) وغيرها .
وأمين الريحاني زعيم الرحالين في العصر الحديث ، وقد ماتوا جميعاً
إلى رحمة الله

أما الأحياء فنذكر منهم المكتشف الرحلة أحمد حسنين باشا
صاحب (في صحراء ليبيا) ، والأمر شكيب أرسلان صاحب
(الحلال للسندسية) ، والأستاذة : محمد ثابت ، وجميل خانكي
الحامى ، وتوفيق حبيب ، ونزهة مسعد الصحافيين . أطال الله
حياتهم

محمد عبد الفتى حسن

أحمد أمين بمقال ممتع في الجزء الثاني من فيض الخاطر . واسمه
أبو عبد الله القندسي . وكتابه الذي وضع فيه قوانين الرحالين ،
وقواعد السفر ، وشروط من يتصدى لشدة الرحال اسمه « أحسن
التفاسيم في معرفة الأقاليم » . وقد رأيت عند صديقي المستشرق
المولندي « مستر ستربكر » ، وكان يعتمد عليه في دراساته
الجغرافية التاريخية

ويعتاز هذا الرحالة باستجاء عدة الجواب ، واستكمال
أدواته . فقد عمل كل ما يستطيع عمله لدرس حالة البلد الذي
ينزل فيه . واتصل بالملك ، وخالف السوق وعمل في أشرف
الأعمال ، وزاول أحقرها . ولقي في تأليف الرحلة وتدوينها عتاً
كثيراً ليكون كلامه عن صدق ، وروايته عن تجربة ، أو كما قال
هو عن نفسه : [وإنما ذكرت هذا للتقدير ليعلم الناظر في كتابنا
أننا لم نضعه جزافاً ، ولا رتبناه مجازاً ، فكلم بين من قامى هذه
الأسباب وبين من صنف كتابه في الرفاهية ووضعه على اللباع]
وفى الرحالين المشهورين ابن جبير الأندلسي وابن سعيد
الغربي صاحب كتاب (المغرب) ، وإفوت الروي صاحب
المعجمين المشهورين : « معجم الأدباء » في تراجم الرجال « ومعجم
البلدان » في جغرافية البلاد

وفضل معجم البلدان على كتب الرحالين جميعاً أنه - كما -
معجم مرتب ترتيباً أبجدياً لكل بلد أو مكان أو قطر مشهور
أو مغمور ، أو أرض عامرة أو غامرة ، أو مدينة صغيرة أو كبيرة .
وطالما أسف الأديب بطلته في الكشف عن حلة ، أو الاهتمام
إلى موضع ، أو تحقيق غوطة ، أو معرفة واد ، أو متابعة نهر
في مجراه . ويتخلل ذلك كله شعر جميل ، أو رواية واسعة ،
أو قصة طريفة ، أو حادثة تاريخية ، أو ذكر يوم من أيام العرب
ولقد اعتمد عليه من أتى بعده من الرحالين في تحقيق
الأماكن ، ومعرفة المواطن . ولابن بطوطة شهرة واسعة برحلته
المروقة . وتتماز بما فيها من ذكر الكرامات واستطراد
الحكايات ، وتصديق الخرافات ... ويظهر أن صاحبها كان
حسن الاعتقاد مهمل للتصديق . والحق أنها ليست تحسوى من
للناحية الأدبية شيئاً بالقياس إلى الناحية الجغرافية ؛ ومؤلفها
من رحالي القرن الثامن الهجري ، المقابل للربيع عشر الميلاي

رِسْكَام بَعْدَ الْآن !

أحدث الاكتشافات العلمية في صهوة الفهم !
اليوم في مجيئة للأستاذة :

يَوْمَ كَالْيَكْلَوِي
أطلت النشرة العلمية الخاصة من :
جلائم هورمين صندوق برسته ٢١٠٥ م

(س . ت ٥٢٢٧)